

التاريخ في سبر أبطار

أحمد عرابي

للأستاذ محمود الحفيف

أما أن التاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح ،
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟



ظل عرابي في مرحلته الأولى في الجندية ساخطاً على الأتراك في الجيش والجر كس لا يفتقر سخطه ولا ينقطع عليهم شغفه ، يكيدون له ويكيد لهم . وإنا لنعس في هذا سبباً قوياً من أسباب زعامته للحركة العسكرية فيما بعد ، فلنصف بلقي في دار هذا المتبرم الساخط رؤوس الساخطين الحائزين من رجال الجندية يوم يزعمون أن يشتكوا إلى الحكومة في أوائل عهد توفيق مما يلحق بهم من سياسة وزير الجهادية الجر كسي عثمان رفيق

ويشير عرابي في مذكراته إلى حسن صلته بسعيد باشا حتى لقد أهدى إليه هذا الوالي كما يذكر تاريخ نابليون ؛ ولقد قرأ

عراي هذا التاريخ ، ولست أستطيع أن أثبت على وجه التحقيق ما تركه مثل هذا الموضوع من أثر في نفسه ، فلم يعلق هو ص ذلك إلا بقوله : « ولما طالعت ذلك الكتاب شعرت بحاجة بلادنا إلى حكومة شورية دستورية ، فكان ذلك سبباً لطالعتي كثيراً من التواريخ العربية » . ولست أدري كيف توحى قراءة تاريخ نابليون بحاجة مصر إلى حكومة شورية دستورية ؟ على أن قراءة سيرة هذا الجندي المغامر القذ الذي وصل يجمه إلى قمة المجد الحربي وبلغ أوج الشهرة والجاه توحى إلى كل من يقرأها معاني الإقدام والبطولة ، وتغلا النفوس تطلماً وحماة . وعلى هذا فلا يصعب أن نتصور ما عسى أن تلقى تلك السيرة من المعاني في نفس كنفسي عرابي الجندي المتطلع التوثب

ويشير عرابي في كتابه إلى أن سعيداً كان يميل إلى المصريين في الجيش وإلى رفع ما يلحق بهم من غبن أمام الجر كس ، كما يشير إلى أنه كانت لسعيد نزعة وطنية تجلت في خطبة أثبتتها عرابي في كتابه وكان قد سمعها في الحفلة التي أقيمت فيها ، يقول عرابي : « فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والمظاء غاضبين خائفين مدهوشين مما سمعوا ؛ وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تهلل فرحاً واستبشاراً . وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر في أساس نظام مصر للمصريين . وعلى هذا يكون الرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة في قلوب الأمة المصرية الكريمة »

ولقد كتب عرابي هذه الآراء بعد الثورة ، ولعل في ذلك ما يدعو إلى ضعف الثقة في قيمتها عند بعض المؤرخين ، كما هو الحال في مذكرات نابليون التي كتبها في منفاه في سنت هيلانة ، فلقد أخذها بعض المؤرخين على أنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا إلى نفسه فنظر وتدبر

ولكن أعمال عرابي التي لا ينكرها المؤرخون حتى الغرضون منهم لا تتناقض مع كثير مما جاء في مذكراته ، وعلى الأقل في هذا الجانب الذي نتلص فيه الدليل على ما منحبه من أن عرابياً قد أجمه منذ نشأته اتجاهاتاً وطنية قومية ، وهذا أمر نراه على جانب عظيم من الأهمية . ففي هذه النزعة القومية نرى عرابياً الحقيقي . أما عرابي الذي صورته خيال المفرضين من المؤرخين فما أبعد عن هذا . وهل كان يحلو لهؤلاء الذين استغلوا حركة عرابي أقبح استغلال ، إلا أن بصوروه أقبح صورة ؟ فلا يكون عندهم إلا جندياً جاهلاً

قد سار بالوقية بينه وبين وزير الجهادية متهمًا إياه بأنه : « صلب الرأي شرس الأخلاق لا يتقاد لأوامره ولا يحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية » . وأما سبب الخلاف بينه وبين خسرو فيذكر عرابي أنه كان في لجنة لامتحان القنباط وكان على رأسها خسرو ، فأراد أن يتحيز إلى أحد الجرا كسة فيعطيه مالا يستحق ولم يرض عرابي على رغم إلحاحه عليه أن يشابهه في ذلك فعول على الانتقام منه

والذي يمتينا من هذه الرواية أنها تصور لنا شدة الخلاف بين عرابي ورؤسائه في الجيش مهما كانت أسباب ذلك الخلاف ، كذلك يكشف لنا ما علق به عليها عرابي عن ناحية من عقليته ، فلقد راح يذكر ما حل بمن آذوه من المصائب معدداً أسماءهم مبيناً ما لحق بكل منهم مورداً ذلك على أنه انتقام له من الله ... وفي هذا نوع من السذاجة لا شك كما أن فيه دليلاً على ما كان للدين من سلطان على عقل عرابي وقا به

على أن هذه الناحية الدينية في حياته قد استغلها ضده خصومه كذلك محاولين أن يسوقوها دليلاً على أنه كان رجلاً لا يفرق كثيراً عن عامة الناس في جميع أفكاره وزعماته ، دون أن يشعروا أنهم بهذا التعميم الذي لا مبرر له إنما ينالون من عقولهم هم ، أو على الأقل أنهم إذا كانوا يدركون خطأ هذا التعميم ثم يتمسكون به قائماً ينالون من أنفسهم لا من نفسه

كان للدين سلطانه على عقل عرابي ما في ذلك شك ، ولكن تلك كانت نزعة العصر . على أننا نسال ماذا يضيره من ذلك ؟ وكيف يساق هذا على أنه من مساوئه وحقيق به أن يكون من حسناته ؟ وهل عاب أحد على كرمويل وهو جندي مثله تزمته وتقشفه وصرامته في دينه ؟ وهب أنه كان يغلو أحياناً فيخلط بين ما يتصل بالدين وما يتصل بالسياسة فهل مال به ذلك عن منهاجه السياسي أو صرفه عن وجهته التي عمل على بلوغها ؟ وهل يستطيع أحد من خصومه أن يقيم الدليل على أنه اتخذ يوماً من الدين سلاحاً في غير محله ؟ أو على أنه استغنى بالدعوة الدينية عن الجهاد والقتال حتى النهاية حين عملت خيانة بني قومه ودسائس أعدائه على انتزاع النصر من بين فكيه ؟

ظل عرابي ثلاث سنوات مبعداً عن وظيفته إلى أن عفاه عنه الخديو فساد ، ولكنه طلب أن يحال على الأعمال المدنية ككافة الفيضان والإشراف على بناء الجسور من ناحية نقل ما يلزم من

متروراً وأنته الظروف فراح يخبط في حماقه لا يلوى على شيء ، وما زال في جنونه يلوح بسيفه حتى اضطر آخر الأمر أن يسلمه صاغراً إلى قائد جيش الاحتلال الإنجليزي !

ما كانت حركة عرابي عسكرية بحثة ، وما كان هو بالأحق ولا بالجنون ، وإنما كان لا بد أن تلتق الحركة العسكرية وهي لا تخلو من الصفة الوطنية بالحركة الوطنية العامة ؛ ثم لقد تم هذا الالتقاء في شخص عرابي ، وكان النجاح حليفه فيما طلب باسم الأمة يوم عابدين ، ولا لوم عليه بعد ذلك ولا جناح أن تحاك الدسائس وتوقد نار الفتنة تنفيذاً لسياسة مرسومة سوف تخبط عنها بكل ما وسعنا من حجة ...

هذه النزعة الوطنية القومية في نفس هذا المصري الفلاح مع ما توافر له من صفات الغيرة والبسالة ، هي التي جعلت إليه قيادة الحركتين يوم التقتا . ولقد كانت هذه النزعة كما ذكرت تجيش بها نفسه منذ شب . كتب في ذلك مستر بلنت وكان من أصدقاء عرابي يقول في علاقة عرابي بسميد^(١) : « وقد حظى عرابي الذي كان وسيماً ووجيهاً برضائه حتى سمي أركان حرب له ورافق سميداً إلى المدينة في السنة التي سبقت وفاته . وعندى أن عرابي كونه آراءه السياسية الأولى أثناء حديثه مع سيده في هذه السفارة التي كانا فيها متلازمين ، وتنحصر هذه الآراء في المساواة بين الطبقات ، وفي الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الأساسي المجد في الجيش المصري ؛ وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذي ميز عرابيا عن مصلحي ذلك العصر . وغنى عن البيان أن حركة الإصلاح الأزهرية كانت تشمل المسلمين ولا تميز بين الأجناس ؛ أما حركة عرابي فكانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر ، وإقبال الناس عليها أقوى وأكثر » .

وفي عهد اسماعيل يزداد نفور عرابي من الجركس وترداد ميوله الوطنية وضوحاً باتصاله بالحركة الوطنية التي أخذت تدب في جسد الأمة المنحل الذي أثقلته سياسة اسماعيل وديون اسماعيل وكذلك تزداد في هذا العصر نزعة تمرد وسخطه وتتجلى في كثير من مواقفه ؛ ومن أهم تلك المواقف ما كان بينه وبين خسرو باشا الذي ما زال يكيد له حتى رفت من الجندي ، وكان خسرو هذا جركسياً ويمزو عرابي سبب رفته إلى أن خسرو

(١) التاريخ السري ص ٩٩ ترجمة البلاغ

الأدوات ؛ وإنه ليدكر أنه بذّر في تلك الأعمال جهداً كبيراً ، ولكنه رأى غيره يكافأ مكافآت مالية أما هو فكان جزاؤه كما يقول : « وكوفئت أنا على تلك الأعمال الشاقة الجليّة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى ، فيالله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة ! وما أكثر العجائب في الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة »

على أن مستر بلنت يذكر أن تكليف عرابي بتلك الأعمال كان على غير رغبته ، وأن ذلك كان سبباً من أسباب تقمته على العهد القائم يومئذ ومن دوافع انضمامه إلى الساخطين والمتذمرين وأعيد عرابي بعد ذلك إلى الجندية وألحق بالحملة الحبشية ، ولكن عمله في هذه الحملة لم يكن عمل الجندي المحارب فقد كان يعمل في منصب مأمور مهمات بمصوع . ولقد عظم حق عرابي على تلك الحملة فهو ما يفتأ يندد بها في مذكراته ويصف ما حل بالجيش فيها من كوارث في غير موجب . جاء في كتاب مستر بلنت : « وقد عاد منها كسائر زملائه ساخطاً على ما حدث فيها من سوء التصرف ، وإلى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة ، وتعاظم غيظه الذي كان موجهاً بعد ذلك نحو الخديو »

وفي فبراير عام ١٨٧٨ وقعت مظاهرة الضباط الخطيرة ، تلك المظاهرة التي نلج فيها بوادر الثورة العسكرية . يتلخص هذا الحادث في أن عدداً من الضباط برظمة البكباشي لطيف سليم ، قد توجهوا إلى وزارة المالية يطالبون بمرتباتهم المتأخرة ، فلما حضر نوبار باشا رئيس الوزراء وكان معه السير ريفرز ولسن وزير المالية هجم هؤلاء الضباط عليهما وأشبعوا نوبار لطماً ولكماً وراحوا يجرونه من شاربيه ، وامتدت أيديهم كذلك إلى وزير المالية ؛ وكاد يتفاقم الحادث لولا أن خف إلى هناك الخديو بنفسه في فرقة من حرسه حينما نعى إليه خبره ، وأمر الخديو بإطلاق النار إرهاباً فأطلقت رصاصات في الهواء وفر المتظاهرون

ولكن تهمة القيام بهذه المظاهرة أو تديرها قد وجهت إلى عرابي واثنين آخرين من الضباط ، وعقد لهم مجلس يحاكمهم وأصدر المجلس حكمه بتوبيخهم وفصل كل منهم عن ألبه إلى جهة بعيدة وكانت الاسكندرية نصيب عرابي ، وفيها اتصل بكثير من الأوربيين

ويدفع عرابي التهمة عن نفسه مقررّاً أنه لا يد له فيها مطلقاً إذ كان في رشيد وقت وقوع الحادث ، ذكر ذلك في مذكراته وذكره كذلك في التاريخ الذي كتبه لمستر بلنت بناء على طلبه عام ١٩٠٣ بعد عودته من منفاه . ولقد أطلع مستر بلنت الشيخ محمد عبده على ما كتب عرابي ، فوافق على براءته من هذا الحادث ولقد أدى اتهام عرابي على هذا النحو إلى ازدياد كراهته لاسماعيل وعهد اسماعيل . وسوف يكون ذلك من أهم الدوافع التي توجهه إلى الاتصال بالوطنيين بغية معاونتهم والاستمانة بهم على تنفيذ ما كانوا يأملونه من وجوه الإصلاح . ذكر عرابي فيها كتبه لمستر بلنت : « ولكن قبل أن نفرق اجتماعنا (يشير إلى الضابطين اللذين اتهمتا معه) فاقترحت عليهما أن نكون عصبة نلجع لاسماعيل . ولو فعلنا ذلك لحللنا المسألة من وقتها لأن القناصل كانوا يرغبون في التخلص منه بأية طريقة ... ولكن لم يكن قد ظهر بعد من يقود هذه الحركة فوافق الوجودون على رأبي ولكننا لم تقدر على تنفيذه »

الخفيف

« بنح »

أهمونه

تنشأ

مدارس برليتنس

بشارع عماد الدين رقم ١٦٥

ما بين أول و ١٥ أبريل

قصود جديرة في اللغة

الفرنسية والانكليزية والألمانية

٩ أشهر	٦ أشهر	٣ أشهر
١٨٠	١٣٠	٨٠